الحدس عند ديكارت

م. م هبه عبد إبراهيم

hebaabd@uomustansiriyah.edu.iq

أولاً: مفهوم الحدس

أ) الحدس لغةٍ:

ان الدلالة اللغوية لمفهوم الحدس اخذت معاني مختلفة منها ان الحدس بفتح الحاء وسكون الدال المهملة تعني عند الفراهيدي - في كتابه العين – التوهم، ويدل الحدس عند غيره على الرمي، ومنه حدس الظن، انما هو رجم بالغيب. وغيرهما يشير به الى سرعة السير، وهو التخمين عند غير هؤلاء. ويعني به اخرين، النظر الخفي او الفراسة.

ويورد هذه المعاني للحدس الدكتور جميل صليبا في معجمه الفلسفي اذ يعبر عن ذلك بقوله: "الحدس في اللغة الظن، والتخمين، والتوهم في معاني الكلام والامور، والنظر الخفي والذهاب في الارض على غير هداية، والرمي، والسرعة في السير، والمضي على غير استقامة، او على غير طريقة مستمرة.

ب) الحدس اصطلاحاً:

الحدس (intuition) هو الادراك المباشر لموضوع التفكير، وله أثره في العمليات الذهنية المختلفة، فيلاحظ في الادراك الحسي، ويسمى بالحدس الحسي، من جهة ويكون اساساً للبرهنة والاستدلال، ويسمى حدساً عقلياً من جهة اخرى، فبالحدس ندرك حقائق التجربة، كما ندرك الحقائق العقلية. من ذلك يعد بأنه ضرب من المعرفة او الادراك المباشر. والحدس عند الفلاسفة المسلمين مأخوذ من معنى السرعة في السير وكذلك من معنى سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب، والمقصود بالحركة وسرعة الانتقال تمثل المعنى في النفس دفعة واحدة، وفي وقت واحد، كأنه وحي مفاجئ أو وميض برق

ويذهب لا لاند في موسوعته الفلسفية إلى بيان ابرز معاني الحدس في تاريخ الفكر الفلسفي إلى انها "معرفة حقيقية بينه مهما تكن طبيعتها تستعمل مبدأ ومرتكزاً للاستدلال النظري تدور حول الأشياء وعلاقاتها. وانه نظرة مباشرة وفورية لموضوع فكري ماثل ألان إمام الفكر ومدرك في واقعه الفردي...، وانه كل معرفة تأتي دفعة، وبلا مفاهيم... ومعرفة فريدة منفردة بذاتها وضمان الحكم وسرعته ".

ثانياً: المعرفة الحدسية عند رينيه ديكارت (1596-1650م)

منذ اللحظة الأولى التي شرع فيها ديكارت* في تأسيس منهجه الفلسفي، سعى إلى وضع أسس يقينية تُفضي إلى معرفة لا يشوبها شك، باعتبار أن بلوغ اليقين كان الغاية القصوى

* يُعد رينيه ديكارت (1596–1650) من أبرز فلاسفة العصر الحديث، وأحد المؤسسين الكبار للحداثة الفلسفية في أوروبا. وُلد في لاهاي بفرنسا، وتوفي في ستوكهولم بالسويد، بعد أن قضى سنواته الأخيرة في خدمة الملكة كريستينا. يُنظر إليه بوصفه "أبا الفلسفة الحديثة"، لما أحدثه من قطيعة منهجية وفكرية مع أنماط التفكير المدرسي التي هيمنت على الفلسفة الوسيطة، سواء في اعتمادها المفرط على المنطق الأرسطي أو خضوعها للسلطة اللاهوتية.

سعى ديكارت إلى تحرير العقل من كل سلطة خارجية، سواء أكانت سلطة الكنيسة أو سلطة الموروث الفلسفي، فابتكر منهجاً جديداً في التفكير يقوم على الوضوح والتمييز واليقين، مستلهماً النماذج الرياضية في تأسيس المعرفة. وكان هدفه إقامة فلسفة مؤسسة على مبادئ يقينية لا تقبل الشك، تكون منطلقاً لبناء نسق شامل من الحقائق، سواء في الميتافيزيقا أو في العلوم الطبيعية.

ترك ديكارت تراثاً فلسفياً وعلمياً غنياً، من أبرز أعماله الأولى كتاب "العالم" (1629–1633)، الذي تأخر نشره بسبب الحذر من مصير غاليليو، وكتابه الأهم "مقال عن المنهج" (1637)، الذي يُعد البيان التأسيسي لمنهجه العقلي، وقد ألحق به ثلاثة ملاحق علمية في البصريات والهندسة والميكانيكا. ثم تتابعت أعماله الكبرى: "التأملات الميتافيزيقية في الفلسفة الأولى" (1641)، و*"مبادئ الفلسفة"* (1644)، و*"رسالة في انفعالات النفس"* (1649)، وصولاً إلى كتابه "البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعي"، الذي نُشر بعد وفاته عام 1701.

لمشـــروعه العقلي. وفي هذا الســـياق، يقدّم ديكارت الحدس والاســـتنباط كركيزتين منهجيتين أساسيتين يبنى عليهما كل تفكير فلسفي سليم. فالحدس*، في نظره، يمثل لحظة التأسيس الأولى للمعرفة، ويُعرّفه بأنه «العمل العقلي الذي تُعرف به المبادئ الأولى»؛ أي أنه فعل مباشر للعقل، ليس وليد الحواس ولا ثمرة تأملات اســـتقرائية، بل هو تصـــور ذهني خالص يتميز بالبســـاطة والوضوح واليقين، ويصدر عن ما يسميه ديكارت بـ "نور العقل الطبيعي".

إن الحدس عند ديكارت لا يعني الإدراك الحسي ولا الحكم الذاتي القائم على التجربة، بل هو نوع من الإدراك العقلي النقي، يتم عبر وعي كامل وانتباه متميز، وهو – كما يقول – السبيل الأول إلى بلوغ الحقيقة، أو «الطريق الأول للمنهج الصـــحيح». ومن هنا، فإن الحدس يتصـــل

ويمثل هذا المشروع الفلسفي ـــ كما بيّنه مهدي فضل الله في دراسته التحليلية النقدية عن فلسفة ديكارت ـ نقطة تحول كبرى في مسار الفكر الغربي، إذ نجح ديكارت في إرساء أسس فلسفة عقلانية تحرّر الفكر من الارتهان للسلطات اللاهوتية والقيود الشكلية، وتفتح أمام العقل إمكانيات لا نهائية للتأمل والتبرير والبرهنة. وقد أورد محمود يعقوبي، في معجم الفلسفة، أن ديكارت أسّس جهازاً مفاهيمياً جديداً في الفلسفة، ترتكز فيه الحقيقة على نور العقل وحده، لا على سلطة التقليد أو العقيدة.

* يمثل الحدس عند ديكارت لحظة عقلية أســاســية تتجلى فيها قدرة الذهن على الإحاطة المباشــرة والكاملة بحقيقة ما، دون حاجة إلى المرور بتسـلسـل اسـتدلالي. فهو، كما يعرّفه بعض الشـراح، "حركة عقلية سـريعة ومباشـرة تنتج عن إدراك تام لموضـوع ما وما يتضـمنه من حقائق، حتى في حال تغيّرها أو تطوّرها"، الأمر الذي يجعل من الحدس إدراكاً غير زماني، يتم دفعة واحدة، لا على التعاقب. ويتجاوز هذا الحدس مسـتوى التصـورات أو المعاني الذهنية المجردة، ليبلغ مسـتوى الإمسـاك بحقائق يقينية وروابط ضرورية بين المعاني والمبادئ، لا تقبل الشك ولا الخلط.

ومن هذا المنظور، يغدو الحدس عند ديكارت أداة العقل الأولى، التي لا تنفصل عن ما يسميه بـــ"نور العقل الطبيعي"، إذ يُعوَّل عليه في إدراك المبادئ الأولية التي يبني عليها كل نســقه المعرفي، كفكرة الأنا المفكر أو وجود الله أو بديهية الامتداد. وهنا تتضـح مركزية الحدس في المشـروع الديكارتي، ليس فقط كمجرد قدرة عقلية، بل كشرط إمكان لكل يقين فلسفي لاحق.

بالحاضـــر من جهة، ولكنه يتجاوزه من خلال ربط المبادئ الأولى بالقضـــايا التي تترتب عليها، وهو ما يُضفي على الحدس بعداً منهجياً لا يقتصر على النظرة الأولية بل يتطلب مراجعة شاملة للحدود الوسطى، التي تضمن ترابط القضايا على نحو يقيني.

يصـــف ديكارت الحدس بأنه نور طبيعي أو غريزة عقلية فُطر عليها الإنســـان، ويحدّد الأمور التي يمكن للعقل إدراكها بالحدس في ثلاثة أنماط رئيسة:

الطبائع البسـيطة* مثل الامتداد، والحركة، والشـكل، والزمان، وهي مفاهيم لا تُسـتخلص من التجربة بل تُدرك مباشرة بالعقل.

الحقائق الأولية التي لا تحتمل الشـــك، كقوله: «أنا موجود لأني أفكر»، وهي أســـاس الكوجيتو.

المبـادئ العقليـة التي تنظم العلاقـة بين الحقـائق الجزئيـة وتُؤســـس لنســـق من المعرفـة المترابطة.

---

* إن ما يسميه ديكارت بـــ "الطبائع البسيطة" لا يُفهم بوصفه تجريداً ذهنياً خالصاً أو اختزالاً اصطناعياً للواقع، بل هي حقائق واقعية أولية تتأســس عليها ســائر الحقائق المركبة. فبســاطتها لا تكمن في كونها معزولة عن الواقع، بل في أنها تمثل عناصر أولية يتولد من تراكبها وتداخلها تكوين حقائق واقعية أكثر تعقيداً. ومن هذا المنطلق، فإن بسـاطتها لا تتحدد من خلال عملية ذهنية تجريدية، بل على العكس، فإنها تشتمل – ولو بصورة ضمنية – على الفكرة الكلية للموضوع. فمساحة الجسم، على سبيل المثال، وإن كانت تبدو مفهوماً بســيطاً من الناحية الهندســية، إلا أنها تنطوي في حدّ ذاتها على فكرة الجســم كله، باعتبارها تحدد حدوده ومقدار امتداده، وبالتالي فهي تحتوي ضمنياً مفهوماً أكثر تعقيداً منها.

وهكذا يتضح أن البساطة عند ديكارت ليست تفكيكاً اعتباطياً للواقع، بل هي بساطة أنطولوجية ومعرفية في آن واحد، تؤســس لإمكان الحدس العقلي، باعتباره الإدراك المباشــر لتلك الطبائع بوصــفها مبادئ أولى يقينية.

ومن أبرز الأمثلة التي يسوقها ديكارت لتأكيد صلاحية المنهج الرياضي وجدواه في الكشف عن هذه الحقائق، المثال الشهير حول المثلث، حيث يرى أن العقل بإمكانه أن يدرك بالحدس أن المثلث محدود بثلاثة أضلاع، أو أن الكرة محدودة بسطح واحد. فهذه ليست استنتاجات تُستخلص من معطيات حسية أو تجريدات لغوية، بل هي معارف حدسية تقوم على الإدراك المباشر لطبائع الأشياء، دون حاجة إلى وسائط.

ولا ينبغي أن يُفهم من ذلك أن الحدس في تعارض مع الاستدلال، بل إن ديكارت يرى أن الحدس هو الذي يوجّه الاستدلال ويمنحه شرعيته. فالاستدلال في جوهره هو حركة الفكر المستمرة التي تمر عبر مجموعة من الحدود، كل منها يجب أن يُدرك في ذاته بالحدس، حتى يتم الربط الصحيح بينها.

وقد أشار المفكر عثمان أمين إلى المكانة المحورية التي يحتلها الحدس في النسق المعرفي الديكارتي، إذ يعدّه الأساس الأول للمنهج، ومن ثم الأساس الأول للعقل ذاته، ما يجعل من الحدس لا مجرد أداة معرفية، بل بنية تأسيسية للعقل الحديث كما تصوره ديكارت.